كتاب الأمة

سلسلة فصلية تصدر عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - قطر

٤٣

المنهج النبوي والتغيير الحضاري

برغوث عبد العزيز بن مبارك

سلسلة فصلية تصدر عن مركز البحوث والدراسات بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة قطر

ص . ب : ٨٩٣ . الدوحة . قطر

من شروط النشر في السلسلة

- أن يهتم البحث بمعالجة قضايا الحياة المعاصرة ومشكلاتها ويسهم بالتحصين الثقافي والتغيير الحضاري وترشيد الصحوة في ضوء القيم الإسلامية .
- أن يتسم بالأصالة والإحاطة والموضوعية والمنهجية .
- أن يشكل إضافة جديدة وألا يكون سبق نشره .
- أن يوثق علميًّا بذكر المصادر والمراجع التي اعتمدها الباحث مع ذكر رقم الآيات القرآنية وأسماء السور وتخريج الأحاديث .
- أن يبتعد عن إثارة مواطن الخلاف المذهبي والسياسي ويؤكد على عوامل الوحدة والاتفاق .
- أن يكون البحث بخط واضح ويفضل أن يكون مكتوباً على الآلة الكاتبة وألا يزيد عن مائة صفحة (حجم فولسكاب) تقريباً .
- يفضل إرسال صورة عن البحث لأن المشروعات التي ترسل لا تعاد ولا تسترد سواء اعتمدت أم لم تعتمد .

تقدم مكافأة مالية تتناسب مع قيمة البحث العلمية

بسم الله الرحمن الرحيم

المنهج النبوي والتغيير الحضاري

الطبعة الأولى
رمضان ١٤١٥هـ
شباط (فبراير) ١٩٩٥م

١ر٢١٠
برغوث عبدالعزيز بن المبارك
المنهج النبوي والتغيير الحضاري / تاليف برغوث عبدالعزيز بن مبارك .
الدوحة : وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، ١٩٩٥م .
١٥٧ ص ، ٢١ سم . (كتاب الأمة ٤٣) .
(ايداع : ٥ / ١٩٩٤) .
الرقم الدولي (ردمك) : ٣ - ١٣ - ٢٣ - ٩٩٩٢١
١ - الإسلام والمجتمع . ٢ - الإسلام والحضارة .
أ . العنوان ب . السلسلة .

حقوق الطبع محفوظة
لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
بدولة قطر

ما ينشر في هذه السلسلة يعبر عن رأي مؤلفيها

كتاب الأمة

Al Ummah

مركز البحوث والدراسات

هاتف : ٤٤٧٣٠٠

فاكس : ٤٤٧٠٢٢

برقيا : الأمة - الدوحة

ص . ب : ٨٩٣ الدوحة - قطر

ثمن النسخة

الأردن	٥٠٠ فلس
الإمارات	٥ دراهم
البحرين	٥٠٠ فلس
تونس	دينار واحد
السعودية	٥ ريالات
السودان	٢٥ جنيهاً
عُمان	٥٠٠ بيسة
قطر	٥ ريالات
الكويت	٥٠٠ فلس
مصر	٢ جنيه
المغرب	٨ دراهم
اليمن	١٢ ريالا

○ الأمريكتان وأوروبا وأستراليا وباقي دول آسيا وأفريقيا دولار أمريكي ونصف أو ما يعادله .

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية	
٥ لسنة ١٩٩٥م	
الترقيم الدولي : ٣ - ١٣ - ٢٣ - ٩٩٩٢١	

قال تعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾

(الجمعة)

تقـــــديم

بقلم : عمـر عبيـد حسنـــه

الحمد لله ، الذي أنزل القرآن، مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ، ومهيمنًا عليه ، وجعلـه للناس شرعة ، ومنهاجًا ، واعتبر العدول عن منهجه ، والالتزام بحكمه ، عدولاً عن الحق ، ووقوعًا في الهوى والضلال ، وحذر الرسـولَ ﷺ ، والسائرين على طريق الاقتداء والتاسي ، من الفتنـة التي يكون بها العدول عن بعض ما أنزل الله ، بقوله :

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۚ ﴾

(المائدة : ٤٨ – ٤٩) ، ذلك أن العـدول عن بعض المنهج ، عـدولٌ عن الكل.. كما أن التعديل في بعض جوانب المنهج، هو عدول في حقيقة الأمر، وسقوط في علل التدين، التي وقعت بها الأمم الماضية، من الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعضه الآخر، ومالحق بها بسبب ذلك، من الخزي والسقوط في الدنيا، والعذاب الأليم في الآخرة، قال تعالى: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ... ﴾

(البقرة : ٨٥) .

ولقد اعتبر الله حال الذين جعلوا القرآن (الشرعة والمنهاج) تفاريق وأجزاء، يؤخذ بعضها، ويترك بعض – هؤلاء الذين جعلوا القرآن عضين – كحال المقتسمين الذين سبقوهم من الأمم السابقة، فأفسدوا على الأمة منهجيتها القرآنية، وأوقعوها في الهوى والضلال، والمعاصي، والإصابات، التي تعاني الأمة من آثارها اليوم، أو التي تشكل أزمتها الحقيقية، وتتسبب فيما يقع عليها من العقوبات، ومايمارس عليها من الفتن، والمساومات من (الآخر) لإخراجها عن بعض ما أنزل الله عليها، قال تعالى:

﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ (الحجر: ٩٠–٩٣).

والصلاة والسلام على الرسول القدوة، الذي أصَّل المنهج الإلهي، وبيَّنه، وجسَّده، في واقع الناس، في ضوء هدايات الوحي الأعلى، ومن خلال عزمات البشر، واستطاعاتهم، وتركنا على المحجة البيضاء،ليلها كنهارها، لايزيغ عنها إلا هالك، متمثلاً قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ (يوسف:١٠٨).

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ (الأنعام: ١٥٣)، فوضع بسنته، وسيرته، منهج الوصول إلى التمكين في الأرض، وتحقيق مهمة الاستخلاف الإنساني، والعمران البشري، في الدنيا، والفوز والنجاة في الآخرة، ومثل لسبيله هذا بخط مستقيم واضح، ودعا لاتباعه على بصيرة، ومثل للمناهج الأخرى، من على يمينه وشماله، بخطوط متعرجه، يقف على رأس كل منها شيطان، يغري باتباعها.

وبعـد :

فهذا كتاب الأمة الثالث والأربعون : «المنهج النبوي والتغيير الحضاري»، للأستاذ برغوث عبد العزيز بن المبارك، في سلسلة : « كتاب الأمة » التي يصدرها مركز البحوث والدراسات، بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، في دولة قطر، مساهمة في استرداد شخصية المسلم المعاصر، وتحقيق الوقاية الفكرية، والحصانة الثقافية، وإعادة بناء المرجعية الشرعية، وتشكيل مركز الرؤية، في ضوء هدايات ومعارف الوحي، وتجارب ومكتسبات العقل، وإعادة بناء الوعي، بالمنهج النبوي في التغيير، والتحويل الثقافي، وتبيّن الأسباب، التي حالت دون منهج النبوة، وحسن التعامل معه، وامتلاك القدرة على إنتاج النماذج المأمولة، التي تحقق خلود المنهج، القادرة على حمل أمانة الاستخلاف، والعمران، وإدامة البحث والنظر، في ظروف وشروط ميلاد المجتمع الأول القدوة، مجتمع خير القرون، واستيعاب جميع المراحل التي مر بها، ووسائل توفيرها، للإفادة منها في عمليات النهوض، وتجاوز الواقع، وردم فجوة التخلف، من أجل أن يستأنف المسلم رسالته، ويقوم بالدور الذي ناطه الله به، في إلحاق الرحمة بالناس، مستثمراً إمكاناته الروحية، والذهنية، والمادية كلها، ومنطلقًا من ذاتيته الخاصة، ومرجعيته الشرعية، على طريق النهوض، وتحقيق الإرادة، والإفادة من الإمكان الحضاري، وفك قيود التحكم، والارتهان الثقافي، ومعالجة أسباب التقليد الجماعي والتخاذل الفكري .

وقد تكون الحاجة اليوم، أشد من أي وقت مضى، وقد اشتدت الفتن، وكثر الغثاء والادعاء الثقافي، وشاع مناخ التضليل والضلال، وتطبيع الهزيمة، وتقطيع الرؤية الإسلامية، لإيجاد المسوغات للسقوط الحضاري ، والفلسفات لتكريس الهزائم على الأصعدة المتعددة ... قد تكون الحاجة اليوم، أشد من أي وقت مضى، إلى اللجوء إلى المنهج النبوي ، والاحتماء والتشبث به،

والعض عليه بالنواجذ، خوفًا من الاقتلاع والضياع، ومن ثمَّ محاولة استقرائه بوعي وإحاطة، وقراءة الواقع، والحال الذي صار إليه، والتعرف على أسبابه، ومحاولة تحديد المكان والموقع المناسب، الذي يمكن أن يوضع فيه هذا الواقع، من خلال المنهج النبوي في التغيير، ومسيرة السيرة النبوية، من خلال استيعاب المراحل كلها، لتكون كل مرحلة أنموذجًا ومحل اقتداء للمرحلة التي تماثلها في واقع الأمة، ابتداءًا من مرحلة الاستضعاف، والاحتفاظ بالإيمان في القلب، والاقتصار على كف اليد، وإقامة الصلاة، حتى تتوفر الإمكانات، ويحضَّر الواقع، وانتهاءًا بمرحلة التمكين في الأرض، والدفاع عن إنسانية الإنسان، وتحقيق حرية اختياره، والحيلولة دون افتتانه.. أو ابتداءًا من مرحلة: ﴿اقرأ﴾ كمدخل وسبيل إلى التغيير، وانتهاءًا بمرحلة الاكتمال والكمال، التي يشير إليها قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣).

ذلك أن المنهج النبوي في التغيير، والبناء الحضاري، وسيرة الرسول ﷺ في التعامل مع الواقع، قد استوعب، ومر بالحالات والمراحل كلها، التي يمكن أن تعرض لها المجتمعات البشرية بشكل عام، والإسلامية بشكل خاص، نهوضًا وسقوطًا، وحركة وركودًا، وامتلك الحلول والإجابات الكاملة، لأصول المشكلات الإنسانية والاجتماعية، وكيفيات التعامل معها، وإلا كيف استحق أن يكون خالدًا، وأن يكون محل الأسوة والاقتداء؟!

لذلك فمن الأهمية بمكان – ونحن بسبيل معاودة النهوض – امتلاك القدرة على الوعي بالمنهج النبوي في التغيير والبناء الحضاري، وإدراك مراحله بدقة، ومقاصده في كل مرحلة، ومرونته في التعامل مع الواقع، في ضوء تلك المقاصد، أمرًا ونهيًا، وحظرًا وإباحةً، ورخصة، وعزيمة، بحسب الظروف

والأحوال، والاستطاعات، وتوفر الأسباب، ومن ثمّ القدرة على تحقيق خلوده، وذلك بتجريده من حدود وقيود الزمان والمكان، وتوليد الرؤى، والأحكام الشرعية، والحلول النبوية، للحالات، مع مراعاة الأعمار التي يمر بها المجتمع، وتنزيل هذه الحلول على الواقع، في ضوء ظروفه، وإمكاناته، وموقعه من مسيرة المجتمع الأول وسيرته، مع الأخذ بعين الاعتبار، أن اعتماد المرحلية والتدرج لا يعني بحال من الأحوال تجزيء المنهج، وتقطيعه، بمقدار مايعني استصحاب المراحل كلها، التي مر فيها المجتمع القدوة، للوصول إلى مرحلة الاكتمال والكمال، والإدراك الكامل لأبعاد حركة النهوض الشاملة، ومستلزماتها، من خلال المرحلة والموقع، الذي يكون عليه المجتمع اليوم، لتجيء هذه المرحلة في عمرها وموقعها ومكانها مستقبلاً، لبنة في البناء الكامل المأمول.

إن العودة إلى بعض مراحل السيرة، فيما قبل مرحلة الاكتمال والكمال، للمجتمع القدوة، ومحاولة الاستضاءة بها، لحل المشكلات المشابهة، من واقع المجتمع، واستطاعته، لا تعني هنا النكوص والتراجع، بمقدار ما تعني المراجعة للواقع، وظروفه، واستطاعته، ومحاولة تحضيره، والنهوض به، في ضوء الرؤية الشاملة، لمسيرة مجتمع القدوة...

وفي ظني: أن الذين يشيعون، ويدّعون، أن أزمة الأمة المسلمة اليوم، أو أزمة العمل الإسلامي، هي أزمة منهج، هكذا بدون تحديد واضح للمصطلحات، وبيان ماهو المقصود بالمنهج، الذي نعاني من غيابه، أو أن غيابه هو سبب الأزمة، يساهمون أيضًا في الغيبوبة والالتباس.. إن هذا الادعاء، بهذه المجازفة والعمومية الشديدة، يحمل من المخاطر والبلايا والطوام، والتضليل الثقافي، والإلغاء للانتماء، والانتهاء إلى الارتماء، واستدعاء

«الآخر»، أو بشكل أصح استدعاء مناهج «الآخر»، ما لا يعلم مداه إلا الله سبحانه وتعالى، سواء صدر عن حسن نية من بعض البسطاء، الذين انتهت عقولهم إلى آذانهم، والذين يقْفون ماليس لهم به علم – وما أعتقد أن مثل هذه القضايا الشائكة محلها البسطاء – أو من بعض المكَرّة، الذين يحاولون التسلل إلى الداخل الإسلامي، من خلال التدليس، والتلبيس للمصطلحات، والتانيس والمقاربة لمصطلحات «الآخر»، والإيهام بأن القضية قضية إبداع فكري، ضمن القيم نفسها، لتمرير طروحاتهم، بينما الأمر في الحقيقة لايخرج عن أن يكون بدعًا فكرية، غريبة عن مرجعية هذه الأمة، وبعيدة عن منهج وفهم الجيل الأول، المشهود له بالأهلية، ليكون هو وحده بفهمه ومسالكه محل الاقتداء.

وهنا قضية لا بد من تحرير القول فيها، ما أمكن، وهي أننا إذا كنا نريد بالمنهج، أنه بشكل عام هو : منهجية النظر والبحث، وعلوم الطريق الموصلة إلى الهدف، أو بتعبير آخر : أن المنهج هو طريق الوصول ، يصبح من الضروري أن نحدد، ماهي الأهداف، التي نريد الوصول إليها ابتداءً، ومن ثم، ماهي الوسائل والأدوات والمعارف المطلوبة، لتحقيق هذه الأهداف؟ مع ضرورة الانتباه إلى أهمية عدم المجافاة بين الوسائل المعتمدة، في مشروعيتها، والأهداف المرجوة .

فإن كان المنهج المقصود هو نظام مسيرة الحياة في هذه الدنيا، والأهداف هي سعادة الإنسان، وكرامته، وحياته الطيبة، في الدنيا والآخرة، ومايتطلب ذلك من الوسائل التربوية، والأوامر والنواهي، فإن أي ادعاء بأن الأزمة التي نعاني منها، أزمة منهج، يمكن أن يخرج عن الملة – والعياذ بالله تعالى – لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا

﴿ تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ (المائدة: ٤٨)، فالمقصود بالحكم بما أنزل الله، المنهج الذي شرع الله التزامه .. والحكم الذي شرعه الله هنا، لا يخص الجانب السياسي، أو التشريعي، أو الأخلاقي، أو الاقتصادي، أو التربوي، وإنما يعني ذلك جميعه، بكل ما يتطلب المنهج من منطلقات أساسية، وأهداف مرحلية، ونهائية واضحة، ووسائل، وأوامر ونواه، وقيم ومعايير ثابتة، ليست من وضع الإنسان.. وما يتطلب أيضًا من أنموذج تطبيقي لهذا المنهج، أشبه مايكون بوسيلة إيضاح مُعينة على تنزيل قيم المنهج على الواقع، وتحويل فكره إلى فعل مجسَّد في حياة الناس، أو هو كالمجسمات والنماذج، والصور، التي تبين الشكل، الذي لابد أن تنتهي إليه الوسائل.

وهنا نقول: إن الأزمة التي نعاني منها، ليست أزمة منهج، وإنما أزمة فهم للمنهج، وأزمة تعامل مع المنهج.. أزمة تنزيل للمنهج على الواقع، وتقويمه به.. فالإسلام بمصدريه: الكتاب والسنة، والسيرة كتنزيل عملي وأنموذج، هو المنهج، وأن المعايرة للواقع، والتحديد للخلل، إنما يكون في ضوء الكتاب، والسنة، والسيرة، وأن أي معاودة للنهوض، واستئناف السير، مرهون بتقويم الواقع، بمنهج الكتاب، والسنة، والسيرة.. فالإسلام هو المنهج، وهو الصراط، وهو السبيل، وهو الحجة، وهو موثق الاستمساك والتلقي، والمعايرة، واكتشاف الخلل، وتحديد الأزمة، أو هو بكلمة جامعة: الدين، الذي يحكم تصرفات الإنسان، أو يدين له الإنسان بتصرفاته، ونشاطه، لأن أي عدول عن هذا، أو تعديل له – والتعديل هو عدول في الحقيقة، عن بعض الجوانب، كما أسلفنا – إنما يعني بالضرورة استدعاء مناهج ونظم معرفية، ومسالك ومعايير «الآخر»، وليس من «آخر» الآن، سوى المنهج الغربي، بوسائله، وأدواته،

ونظامه المعرفي .

إن اعتماد المنهج الغربي، في النظر، والتحليل، والدراسة، سوف يؤدي بالضرورة أيضًا، إلى أن يصبح الإسلام، كتابًا، وسنة، وسيرة، هو مادة التحليل، ومحل وموضوع النظر، وليس منهج النظر، ومعيار التقويم .. ولا يغيب عنا هنا التذكير بالأبجديات الخاطئة في قراءة الإسلام، من ماركسية، ورأسمالية ، وعلمانية، وكل المقاربات التي تتم وتملأ الساحة الثقافية اليوم ، حيث باتت، مصطلحات «الآخر» هي أدوات، ومحددات الفهم، والقسمات الفكرية، لأي باحث.. وهنا يبرز التناقض والضياع، وتزييف الوعي، أو التدليس، عن وعي.

وحتى لو سلمنا بحسن النية – ومانظن ذلك حاصلاً في هذه المواطن الخطيرة – فإن فصل الأدوات المنهجية عن نظامها المعرفي، ومرجعيتها الفكرية، ومضمونها القيمي، هو خلل منهجي، وتفتيت للنظرية، وتجزيء لها، ومحاولة نقلها للتشغيل، والتعامل مع نسق آخر.

ذلك أن الأدوات المستخدمة، وعلوم طريق الوصول، والتبصير بما يمكن أن يتحصل من إصابات في الطريق، وكيفية الوقاية منها، هو جزء منبثق من المنطلقات، والقيم، والنظرة الكلية الشمولية للأهداف، وليست جزءًا منفصلاً محايدًا، قائمًا بذاته.

ونخشى أن نقول: إن الذين يدَّعون بأن الأزمة عندنا، هي أزمة منهج، متجاوزين في ذلك الصراط، والشرعة، والمنهاج، والسبيل، والدين، الذي أنتج هذه الحضارة، وتلك العلوم، سوف يقودهم سعيهم إلى تبني واحتضان المنهج الغربي، في النظر إلى القيم، والأفكار، والمجتمعات الإسلامية، وحتى

إلى عطاء الكتاب والسنة والسيرة، واعتبارها كسائر المواد التراثية الأخرى، حتى لو أعلنوا خلاف ذلك .

وهنا تحفظ لا بد من التوقف عنده قليلاً، وهو أن التراث عند من يعرِّفه بأنه اجتهاد ،وكسب بشري، خارج دائرة الكتاب والسنة والسيرة، قد يغيب عنه، أنه أثناء فحصه واختباره، وتقويمه، ومحاكمته، لا بد من استخدام المنهج، الذي تم إنتاج هذا التراث في ضوئه، ومن ثم بيان فساد أو صواب التنزيل والتطبيق لهذا المنهج في الواقع، لأن من العقم المنهجي، والفساد الفكري، محاكمة واقع حضارة وتراثها، أو إنتاج حضارة، بأصول ومناهج وأدوات معرفية لحضارة أخرى مغايرة، في منهجها، وقيمها، ومنطلقاتها، وأهدافها، ووسائلها.

وقد يكون أحد الوجوه الخطيرة، للأزمة الفكرية، التي نعاني منها، بسبب عجزنا عن التعامل مع المنهج الذي شرعه الله، وبينته السنة، ونزلته، أو طبقته السيرة، هو الادعاء بضرورة الاقتصار على النص القرآني، في التقويم، والمنهجية، والمرجعية، والمعايرة، والعدول عن السنة والسيرة، أو عن المنهج النبوي في البيان، والتطبيق، والتنزيل على الواقع، أو تجاوزهما عمليًّا، بحجة ظنية السنة، وضعف المرويات، من وجه، أو بأن التنزيل على الواقع في فترة السيرة، كان باجتهاد بشري، محكوم بظروف الزمان والمكان والحاجات، لا علاقة له بالنبوة والوحي، وأن الرسول النبيﷺ الذي يبلِّغ رسالة ربه (القرآن)، ويبيِّن كيفية عبادته، غير الرسول الحاكم (!!) فالمهمة الأولى هو مؤيد فيها بالوحي، ومسدد به،أما الثانية (السنة) فلا وحي فيها، وإنما هو اجتهاد جاء مناسبًا لعصر معين، ليس بالضرورة، أن يكون صالحًا لكل زمان ومكان، وأن إلغاءه، أو تجاوزه، لاعلاقة له بالدين، أو التدين (!!) وهذه

بدعة في التفكير، خارجة عما أجمع عليه المسلمون في عصورهم المتطاولة، ووسيلة ماكرة لعلمنة الإسلام، ومحاصرة المنهج القرآني، وإقصائه، بمحاولة إلغاء سنة الرسول ﷺ، في التطبيق والبيان، لكنها اليوم باسم الإسلام، وهي لا تقل خطرًا وأثرًا عن الابتداع في العبادة.. إنها مروق من الدين، كما يمرق السهم من الرقبة .

أما القول : بأن نص القرآن قطعي، وإلهي، ومطلق، والادعاء بأن نص السنة في معظمه ظني، وبشري، ونسبي، يمكن رده.. فهو ادعاء ساقط، قرآنيًا، ومنهجيًا، وواقعيًا، وقد فند العلماء ذلك، ولم يبقوا فيه استزادة لمستزيد، ذلك أن النص القرآني نفسه، يعتمد السنة، مصدراً للتشريع، والمعرفة، والأحكام ابتداءاً.

أما ظنية السنّة، من الناحية المنهجية، فإن السنة محكومة بضوابط القرآن الكريم،قطعي الثبوت، بحيث لا يجوز لها أن تخرج على نصوصه، أو تعارض مقاصده، أو مرجعيته، حتى في البيان، الذي هو مهمتها، وذلك بنص القرآن، إلى درجة اعتبر معها العلماء، أن من علامات الحديث الموضوع، معارضته لصريح القرآن الكريم. فالسنة، على الرغم من ورود معظمها عن طريق خبر الآحاد ، إلاّ أنها موثّقة بضوابط ومرجعية القرآن، قطعي الثبوت .

إضافة إلى أن هذه النصوص الظنية الدلالة، تجسدت، وتمثلت في واقع أمة، كاملة، مشهود لها بالخيرية، في مرحلة السيرة، والخلافة الراشدة، الأمر الذي يمنحها التواتر العملي، أو السكوتي – إن صح التعبير – وهذا لم يتوفر لنص آخر، غير نصوص السنة، التي تضمنت المنهج النبوي، اللهم عدا النص القرآني، الذي ثبت بالتواتر، الذي يفيد القطع، وعلم اليقين، وهذا التواتر من حيث المنهجية العلمية، يمنح السنة السياج الواقي، ويجعل الظنية فيها،

معتمدة في التشريع، والمعرفة، والأحكام، الأمر الذي لم يعان منه جيل الصحابة، حيث لم تكن هذه الإشكالية مطروحة اصلاً.

ولا بد أن نعترف أن بعضنا يعيش اليوم مرحلة الأرض الأجادب، لكن بعضنا الآخر – مع الأسف – يعيش مرحلة الأرض القيعان، التي أخبر عنها الرسول ﷺ بقوله: «**مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل غيث أصاب أرضًا، فكانت منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس، فشربوا، وسقوا، وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى، إنما هي قيعان لاتمسك ماءًا ولاتنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به، فعلم وعمل.. ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا...**» (متفق عليه).. حيث تتقدم عندنا وسائل الحفظ والنقل لقيم الكتاب والسنة، لكن يصاحبنا العجز عن أن نستنبت منها الكلأ والعشب الكثير، إلى جانب حفظ الماء، فنكون من الطائفة الاولى . وقد يكون من المفيد هنا، أن نورد ما روي عن عثمان وعبد الله بن مسعود وأُبيٍّ رضي الله عنهم، من أن رسول الله ﷺ كان يقرئهم العشر، فلا يتجاوزها إلى عشر أخرى حتى يتعلموا ما فيها من العمل، فتعلموا العلم والعمل جميعًا (صحيح سنن أبي داود)، وما روي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أنه قال: كان الفاضل من أصحاب رسول الله ﷺ في صدر هذه الأمة، لا يحفظ من القرآن إلا سورة أو نحوها، ورزقوا العمل بالقرآن، وأن آخر هذه الأمة، يقرأون القرآن، منهم الصبي والاعمى ولا يرزقون العمل به (القرطبي ١ / ٤٠).

وحتى يكون الكلام واضحًا ، لا بد أن نبيِّن أن العجز المقصود هنا، هو عدم القدرة على الإفادة من المنهج النبوي، في مجال التغيير والبناء الحضاري،

وليس المقصود مجال الفقه التشريعي، حيث خلف لنا العلماء والمجتهدون ثروة فقهية لا نظير لها، من الناحية القانونية، والثقافية، والتشريعية، والقضائية.

لذلك نقول: إن الأزمة الحقيقية التي نعاني منها، أو الأزمة الفكرية، هي أزمة فهم عملي، وأزمة تعامل، مع قيم الكتاب والسنة، وتحويلها إلى برامج، من خلال مسيرة السيرة النبوية.. أو بكلمة مختصرة: أزمة تعامل مع معرفة الوحي بشكل عام، أو استيعاب المنهج النبوي، في البناء والتغيير، سواء في ذلك من ينكرون وجود المنهج، في الكتاب والسنة ابتداءً، ويعتبرون أن الأزمة اليوم، أزمة منهج، أو من يسلمون بوجود المنهج، إلا أنهم عاجزون عن وضع مناهج فهم، وتعامل، من خلال القيم نفسها، ونسقها المعرفي، وتراثها الممتد، الذي يشكل عقلها الجماعي، وشخصيتها الحضارية التاريخية.. لذلك نراهم يتطاولون على التراث، ويحكموا عليه، من خلال تشكيلهم الثقافي، بعيداً عن القيم المعيارية، التي أنتجته، وإنما من خلال قيم حضارات، ومناهج معرفية، وعقائد أخرى، لذلك لا يخرج عملهم عن طحن الماء، على الرغم من الجهد المبذول، والمال المهدور، دون أن تكون عندهم القدرة على إيجاد البديل، أي بديل، وقد يضطرهم سعيهم في النهاية، بسبب فقر إنتاجهم – كما أسلفنا – إلى احتضان أشخاص، قد يفتقرون لأدنى حد من المرجعيات الشرعية، سواء في دراستهم الأكاديمية، أو كسبهم الثقافي، أو في مسالكهم، وإنما هم متخصصون، بالمنهج الغربي، ونظامه المعرفي، وأدواته البحثية، ويحاولون اليوم أن يجعلوا من الإسلام، والنصوص الإسلامية، في الكتاب والسنة، محلاً للتحليل، والدراسة، وفق المناهج، والأنظمة المعرفية، الخارجة عن نسقه، وقد يلحقون بأعمالهم أي شعار إسلامي، لتمريرها وتسويقها في عالم المسلمين.. إنهم يجرأون على

الفتوى، في المعرفة، ويبتدعون في الفكر، وقد لايحسنون معرفة فرائض الوضوء، وأحكام الحلال والحرام، التي يجب أن تعرف من الدين بالضرورة، وقد لايستطيع الكثير منهم أن يقيم لسانه بآية، أو حديث، وغاية عملهم اقتطاع بعض النصوص الإسلامية، وإعمال أدوات المناهج الغربية في فهمها، وإعادة تفصيلها.. فكيف والحال هذه ستكون النواتج الفكرية والثقافية، خاصة إذا علمنا أن الأدوات المعرفية، ووسائل البحث، ومناهج الفهم والتفكير، ليست آليات محايدة، وإنما هي ثمرة لخلفيات عقائدية، ومرجعيات حضارية، لا تخرج عن أن تكون جزءاً منها ؟

إنها المرحلة الجديدة للاستلاب الحضاري، والاختراق الثقافي، التي يفترض لها أن تكون أكثر قبولاً في عالم المسلمين، بعد أن سقطت الطروحات السابقة للإسلام، المعنونة بالمصطلحات الغربية أو الشرقية، لإيجاد غطاء تراثي لتسللها إلى الفكر الإسلامي.

ونخشى أن نقول: إن هذا المسعى اليوم يعتبر من أخطر البدع الفكرية الخفية، التي يجب التنبه لها، والتحصين منها، لأنها لا تقل خطراً عن البدع في العبادات، التي نهض فقهاء السلف والأتباع، لمحاصرتها والتحصين منها، وهزيمتها بالسنة.

هذه البدع الفكرية، التي دخلت علينا باسم وضع الحلول لأزماتنا ومشكلاتنا، وحاولت اصطيادنا في حالة المعاناة، نرى أنها خلفت لنا تراكم الأزمات، بدل أن تضع الحلول.. وقد يكون المطلوب اليوم: أن تصبح مواجهتها من الأولويات، وهزيمتها إنما تكون بوعي المنهج النبوي، والتحصن بمعرفة الوحي، في الكتاب والسنة، والاجتهاد في إبداع الأدوات المعرفية، في إطار النسق الإسلامي، وتصوراته عن الحياة، ومرجعيته الشرعية.

وقد تكون الإشكالية الحقيقية، في النظر للمنهج النبوي، في التغيير والبناء الحضاري، تكمن في استيعاب مسيرة هذا المنهج، بمراحله المختلفة، ومحطاته الكبرى، والإفادة منه في تحديد وفهم الواقع، ووضعه في الموقع المناسب من هذه المسيرة، وامتلاك الفقه والقدرة، في كل مرحلة، على ضبط النسب، وإعادة ترتيب الأولويات، في ضوء الحال، وتطور المراحل، واستصحاب المقاصد، الأمر الذي يتطلب هضم الجزئيات في شعب المعرفة المختلفة، وإعادة تجنيسها، كمعطيات للمنهج النبوي المعرفي، في كل مرحلة.

نعود إلى القول: بأن المنهج النبوي في التغيير، والبناء الحضاري، إذا لم يُدرك بمراحله وأبعاده، ويميِّز بين ثوابته، ومتغيراته، ومراحله، وتدرك الظروف والشروط، التي توفرت لكل مرحلة، يمكن أن ينقلب إلى معوق، بسبب سوء الفهم، ومن ثم سوء التطبيق، بدل أن يكون دافعًا للنهوض.. لذلك فالأمر لايجوز أن يبقى خاضعًا لرؤية فردية، تدّعي الإحاطة بكل شعب المعرفة، وإنما لابد له من دراسات متخصصة، بشعب المعرفة المتنوعة، شريطة أن تكون متحصنة بالمرجعية الشرعية الكافية، للتمييز بين ماهو من الوسائل ، وماهو من الأهداف، وماهو من المبادئ، وماهو من البرامج، وماهو من القيم المعيارية، وماهو من الاجتهاد الخاضع للتقويم، لتشكيل رؤية جماعية لكل عصر، بحسب مشكلاته وظروفه، وإمكاناته، وقضاياه، وموقعه من مسيرة النبوة.

وقد يكون الكثير من مشكلاتنا الفكرية والمنهجية والنهوضية – إن صح التعبير – نابعًا من وجود متخصصين بشعب المعرفة، لكنهم يفتقدون المرجعية الشرعية، أو يفتقدون لمعرفة الوحي بشكل أعم، سواءًا منهم من تخصصوا في الغرب، أو من تخرجوا على أيديهم في مدارس ومعاهد وجامعات العالم الإسلامي، المرتهنة للنظام المعرفي الغربي في المرجع، والمنهج، والكتاب،

والمدرس، أو من هم من المتحمسين للقضية الإسلامية، بعيداً عن أي معرفة أو تخصص.

والمجتمع الإسلامي الأول، هو مجتمع الأنموذج، ومعيار الاقتداء العملي، ليس في مرحلة الكمال والاكتمال فقط، وإنما في المراحل كلها التي مر بها، فكل مرحلة تعتبر قدوة وأنموذجاً لما يشابهها ويقابلها من الأحوال التي يعيشها ويتقلب فيها المجتمع المسلم.. فالمجتمع الأول بالنسبة للمسلم، يشكل المرجعية التطبيقية.. كما أن القيم في الكتاب والسنة، تشكل المرجعية الشرعية والفكرية، وقد تحقق له ذلك دون غيره، بسبب حراسة الوحي، والرؤية الراشدية، بعد توقف الوحي، المشهود لها من الموحى إليه ﷺ، الذي اعتمدها في المرجعية والاقتداء فقال: «...**فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، وتمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ**» (رواه أحمد).

وهنا قضية لابد من الإشارة إليها في الحقيقة: وهي أن المجتمع الأول، مجتمع القدوة، والمثال، والأنموذج، والمرجعية، ليس هو نهاية المطاف للحياة الإسلامية، إنما هو نهاية المطاف للبناء الأنموذجي، إذ أن المجتمعات الإسلامية، الممتدة تاريخيًا، كما هو الواقع، والتاريخ، والسنن الاجتماعية، سوف تمر بسقوط، ونهوض، وقوة، وضعف، ومرض، وصحة، بحسب أقدار التدين المتفاوتة، فهي ليست نسخة مكررة عن المجتمع الأول، مهما حاولت المقاربة والتاسي، ولكنها لا تخرج في كل حالاتها، التي تمر بها، عن المشابهة، مع مجتمع القدوة، في المراحل التي مر بها.

وقد يكون من المفيد التأكيد هنا، أننا مهما حاولنا الاقتراب من مجتمع القدوة، تبقى لمجتمع القدوة الذي ربي على عين النبوة، خصوصية في كونه قدوة دون سائر الحالات المماثلة الممتدة على طول التاريخ الإسلامي، فهي

تجارب تفيد العبرة، ولا يمكن أن تتحول إلى أنموذج أو مصدر للتشريع والتلقي.

والفقه المطلوب اليوم : كيف يشكل المنهج النبوي ، والرؤية الراشدية – قيمًا وبرامج، فكرًا وفعلاً – بمراحلها المتنوعة، مرجعية، وقدوة للمجتمعات الإسلامية ، ضمن الحالات التي تمر بها؟ وكيف يمكن أن يتحقق الاقتداء والإفادة، من المنهج؟ هذه هي القضية المطلوبة بشدة، الغائبة غيابًا مذهلاً .

ونحن عندما ندعو لاستيعاب المنهج النبوي في التغيير والبناء الحضاري، واستيعاب الواقع، ومن ثمّ وضع الواقع في مرحلته المناسبة من مسيرة النبوة، أو من المنهج النبوي، حتى نحقق الاقتداء في عملية التغيير، وكيفية التعامل مع الواقع، وتغييره، والارتقاء به، أو تقويمه بمنهج النبوة، في ضوء عطاء المنهج نفسه، أو عطاء المرحلة المشابهة لواقع الحال، لا نعني بذلك عملية التقطيع، والانتقاء الفقهي، كما أننا لا نعني إيجاد المسوغات الشرعية، أو التستر على هذا الواقع بفقه حيل، أو فقه مخارج، وإنما الذي نريد أن نوضحه: أن القضية قضية اجتهاد فكري، أو رؤية منهجية في كيفية إعادة البناء، في ضوء المنهج النبوي، ترتكز إلى فقه المقاصد، الذي كان محور التغيير في كل مرحلة، ومرتكز ومنطلق آلياته، ووسائله.. لذلك جاء تأكيدنا باستمرار، ومهما كانت مواصفات وشروط المرحلة، على ضرورة استصحاب الرؤية الشاملة.

واعتقد أن الجهود، التي بذلت لحماية السنة، والسيرة وحفظها، ومناهج وضوابط الحفظ، والنقل الثقافي، ومعايير الجرح، والتعديل، لم تتوفر بعد القرآن الكريم، لأي نص تاريخي، أو وثائقي، أو ديني على الإطلاق، ولعل هذا من لوازم وخصائص الخلود .. إن هذه الجهود العلمية العظيمة التي توفرت لحماية بيان القرآن، وكيفيات التعامل معه، فهمًا وتنزيلاً على الواقع،

والتي تحققت من خلال عزمات البشر، الذين يمثلون أوعية الحفظ وأدواته، جاءت مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ۝١٩ ﴾ (القيامة : ١٧-١٩).

والحقيقة التي قد يكون ذكرها هنا من الأهمية بمكان، أنه أثناء التعامل مع المنهج النبوي، لابد من استصحاب الرؤية الشاملة للمنهج، حتى ولو كان التنزيل، والتطبيق لبعضه، بحسب النوازل، وظروف الحال، والاستطاعات، التي تقتضي التركيز على بعض الجوانب في مرحلة معينة، لمعالجة الخلل، دون الجوانب الأخرى.

ذلك أن غياب الرؤية الشاملة للمنهج النبوي، وعدم فقه مقاصد التعامل مع الحالات المتنوعة، من الواقع، وأسباب التركيز عليها، أدى ببعض المفكرين إلى اختلال في شمولية الرؤية، وضبط النسب، وبروز فرق خارجة، ونتوءات فكرية، لا تتفق مع توازن وشمولية المنهج النبوي.. أخذت بعض الجزئيات وضخمتها، وحاولت المرابطة من ورائها، وتعميمها على المنهج كله، فاضطربت الأولويات، واهتزت النسب، وظهرت الثنائيات المتناقضة، والتعسف في التفسير والتأويل المذهبي، لا المنهجي، وأصبحت القواعد والأصول المذهبية، كلامية كانت أو فقهية، هي المعيار لتفسير النص والتحكم بمقاصده، وهو ما لم يعرفه تنزيل الإسلام الأنموذجي في خير القرون .

ولا شك عندي أن عملية التنزيل للمنهج النبوي على الواقع، أو الفقه التطبيقي، وتحويل القيم والمبادئ، إلى برامج، إذا لم تترافق بالرؤية الشاملة، والضوابط الصارمة، واليقظة المستمرة، قد يؤدي إلى لون من التكيف مع الواقع، دون القدرة على تكييفه، وفق القيم، بسبب الإلف له، والقبول به، نتيجة للتوارث الاجتماعي، ومن ثمّ الدفاع عنه، واعتماده كمقياس

للمعايرة.. أو بتعبير آخر: نتيجة لإلف الواقع وحالة الركود، التي يفرضها، وسهولة التعامل معه، يصبح تقليداً يصعب تغييره، ومن ثم يعتمد هذا التقليد، أو هذه التقاليد، لتصبح قيماً، ومعايير، تحل محل المنهج، والقيم، والتعاليم.. وبدل أن تُقوِّم التقاليدُ بالقيم، والتعاليم، وتكون التقاليد هي مادة البحث، والتحليل، تصبح هي معايير البحث، والتحليل، فيصاب المجتمع بالركود والاستنقاع الحضاري، ويصل إلى مرحلة ذهاب العلم، وإن بقيت مصادره التي أخبر عنها الرسول ﷺ .. فعن الإمام أحمد رحمه الله، قال: ذكر النبي ﷺ شيئًا، فقال: «**وذاك عند ذهاب العلم**».. قلنا: يا رسول الله، كيف يذهب العلم، ونحن قرأنا القرآن، ونقرئه أبناءنا، وأبناؤنا يقرئونه أبناءهم؟ فقال: «**ثكلتك أمك يا ابن لبيد، إن كنت لأراك من أفقه رجل في المدينة، أوليست هذه اليهود والنصارىٰ بأيديهم التوراة والإنجيل، ولا ينتفعون مما فيها بشيء؟!**» (الحديث رواه أحمد في مسنده، وابن ماجه في سننه، باب ما جاء في ذهاب العلم، وقال: هذا حديث حسن غريب).

لذلك، وحتى يحُول المنهج النبوي في التغيير والبناء الحضاري، دون هذا التوطين للتقاليد، بسبب التوارث الاجتماعي – كما أسلفنا – شرع الدورات التجديدية، التي اعتمدها كحراسات لسلامة المنهج واستمراره، والتي تعني بعث الحياة للتعاليم والقيم من جديد، وإعادة تصويب المعادلة الاجتماعية.

فالتجديد هو العودة إلى الينابيع الأولى، وإعادة التقويم بها، وبذلك يتحقق الحفظ والاستمرار، وديمومة العطاء، للمنهج النبوي، أو لمعرفة الوحي، بشكل أعم، ليصبح منهج النبوة، أو معرفة الوحي بشكل أعم، هي الإطار المرجعي، والضابط المنهجي، والمعيار للمراجعة المستمرة، وإعادة تقويم الواقع، قبل أن

ينغلق على تقاليده، التي يكرسها التوارث الاجتماعي، لذلك قال الرسول ﷺ : «**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة، من يجدد لها دينها**» (رواه أبو داود في الملاحم).

لقد جُعل التجديد تكليفًا، ولم يقتصر على أن يكون إخباراً.. والتجديد – الذي هو في الحقيقة تقويم للواقع، وتغيير له، ومحاولة للعودة به إلى الينابيع الأولى، بعد إدراك هذا الواقع في ضوء المنهج النبوي للتغيير، أو بكلمة مختصرة: هو النظر في الواقع، وتقويمه من خلال المنهج النبوي، والنظر إلى المنهج النبوي، وكيفيات التزامه، والإفادة منه، من خلال الواقع – هو لازم من لوازم الخاتمية، حيث توقف التصويب من السماء، فلا بد من ممارسة عمليات التصويب والتقويم للواقع، في ضوء مرجعية قيم السماء وبيانها النبوي.

ولعلي أرى أن في تسمية منهج الرسول ﷺ في التغيير والبناء الحضاري، بمصطلح السنة، بعض ملامح الخلود، والتجرد عن ملابسات الزمان والمكان، ذلك أن السنة هي: القانون المطرد الممتد، الذي لايقبل التحويل، ولا التبديل. فهي في مجال الأنفس كالقانون الطبيعي الكوني، في اطراده وثباته، في مجال الآفاق، وإن كان محل الاستشهاد على ثبات السنن واطرادها، غالبًا ماينصرف إلى السنن الكونية الآفاقية، لسهولة إدراكها، ووقوعها تحت الحواس، وفي متناولها، ولأن الزمن المطلوب لاستيعاب اطردها، وإدراك نتائجها، هو في مقدور الإنسان، وضمن عمره المفترض، أما السنن النفسية والاجتماعية، والتعرف على عواقبها، فأمر بطيء ومديد، إلى درجة قد يكون عمر جيل كله، مقدمة لها، إضافة إلى أنه قد تحول بعض العوائق، أو تغيب بعض الشروط، فتختل النتائج أو تتخلف، فيتوهم الإنسان عدم الاطراد،

لذلك غالبًا ما يتحدث القرآن في مجال السنن النفسية والاجتماعية ، بالعواقب ، التي هي آكد من النتائج عمليًا .

فإذا سلمنا، بأن السنة النبوية، هي قانون مطرد في التغيير الاجتماعي، والبناء الحضاري، وأن الاطراد سمة لازمة لها، كلما توفرت الظروف والشروط، وانتفت العوائق، وأن نهوض المجتمع الإسلامي من سقوطه اليوم، مرهون باستعادة الأنموذج، القدوة، والمنهج في التغيير، وأن توفير الظروف والشروط التي توفرت لميلاد المجتمع الأول ، أساس لمعاودة الإنتاج، أدركنا مغزى قولة الإمام مالك رحمه الله : لايصلح آخر هذه الأمة، إلا بما صلح به أولها .

ولعل من الأمور الأساسية التي لا بد من التنبه لها، والتذكير بها هنا، أن منهج الرسول القدوة ﷺ في البناء والتغيير الحضاري، هو منهج اللبنة والتدرج ،وتحضير المحل، والأخذ بيد الناس إلى تحقيق المقاصد الإسلامية، وتقويم سلوكهم بشرع الله، شيئًا فشيئًا، حتى وصل بهم، إلى درجة الاكتمال والكمال، في بناء المجتمع الأنموذج.. وهذا المنهج لم يقتصر على مرحلة النبوة الخاتمة، وإنما هو منهج النبوة في التاريخ الإنساني، ووسيلة الأنبياء جميعًا، حتى إن النبوة الخاتمة بكل عطائها، ومقوماتها، وأهدافها ومنطلقاتها، لم تخرج عن أن تكون لبنة، في البناء النبوي الممتد، مع رحلة الإنسان على الأرض، وقد ألمح إلى هذا وأكده الرسول ﷺ بقوله : « **مَثَلي ومثلُ الأنبياء من قبلي، كمَثَل رجلٍ بنى بنيانًا، فأحسنه وأجمله، إلاّ موضع لبنةٍ من زاويةٍ من زواياه، فجعل النّاسُ يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون : هلاّ وُضِعَت هذه اللبنة؟ قال : فأنا اللبنةُ، وأنا خاتم النبيين**» (رواه مسلم) .

حتى إننا لنجد في القرآن الكريم، الذي يمثل اللبنة الأخيرة، أو المنهج

الأخير للنبوة، الذي انتهت إليه النبوات، مساحة كبيرة، لدعوة الأنبياء، وقصصهم مع أقوامهم، وكيفيات تعاملهم مع المجتمعات، وخلاصة التجارب التاريخية، التي صدقها الوحي، وتحققت من خلال سنن الحياة الاجتماعية والنفسية، والتي تشكل رصيداً في بناء مرحلة النبوة الخاتمة .

لذلك بالإمكان القول: إن الصورة الأخيرة التي انتهت إليها النبوة، لاتخص فترة النبوة الخاتمة، ولا تقتصر عليها من الناحية الزمانية، والمكانية، والحضارية، والثقافية، وإنما هي في الحقيقة ثمرة النبوة التاريخية، بكل بنائها وعطائها ، وإن النبوة الخاتمة ، هي لبنة في هذا البناء المتكامل الكامل ، لذلك فقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ (آل عمران: ١٩) إنما يعني من الوجوه كلها، أن الإسلام هو العنوان، والسمة، والتعريف، لهذا البناء النبوي التاريخي الكامل المتكامل، وإن انتهت تسميته إلى النبوة الخاتمة، وأصبح علماً عليها.

لذلك فالإسلام الذي جاء به محمد ﷺ، هو ملة إبراهيم، ودين موسىٰ، وعيسىٰ ، والأنبياء من قبل ، قال تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ... ﴾ (الشورى: ١٣) .. وأن أي صدق مع منهج النبوة التاريخي، يقتضي الإيمان به، وأن الدعوة إلى الإبراهيمية، ووحدة الأديان، خارج نطاق الإسلام، الذي حقق وحدة الأديان – إضافة إلى أنها تشويه للتكامل والكمال، وحفريات تاريخية لا طائل من ورائها، إلا المزيد من التضليل – هي نكوص، وانتكاس، وتراجع على طريق دارسة.

وكذلك نرى أن اليوم الذي نزل فيه قوله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ

دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ (المائدة:٣) ، إنما كان ذلك الاصطلاح دليلاً على اكتمال البناء، الذي تعتبر النبوة الخاتمة، تسديداً وتصويبًا لنقصه، حتى بلغ الكمال.. فالخطاب من كل الوجوه، خطاب للبشرية جميعًا، ولأبناء الأديان السابقة، التي انتهت نبواتهم إلى الصورة الأخيرة، إلى الإسلام الشامل، ذي العمق، والبعد التاريخي، والبعد المستقبلي معًا.. فالإسلام الذي نزل على محمد ﷺ ليس مقطوعًا عن الماضي، ولا مبتوراً من سياقه، وإنما استوعب الماضي، في بناء الحاضر، قال تعالى: ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ (الحج:٧٨) كما أحسن بناء الحاضر، وكماله، في ضوء عطاء النبوة التاريخي، ليصبح الإسلام بناء المستقبل الخالد، ومنهجه الدائم، الذي اكتمل، وكمل علي يدي محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، وأصبح في مأمن من النقص والانهدام، قال تعالى: ﴿ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ﴾ (المائدة: ٣) .

والذي نراه هنا أن منهج اللبنة ليس مقتصراً على بناء الأنموذج، وإنما هو منهج كل بناء، أو إعادة بناء.. وكل لبنة من هذه اللبنات، تشكل مرحلة للاقتداء بما يماثلها، شريطة استصحاب صورة البناء الكامل، التي لابد أن تشكل اللبنة مرحلة للانتهاء إليها.

وقضية أخرى، في إطار منهج اللبنة، يمكن أن نلمحها في سنة الرسول ﷺ، وطريقته في التغيير والبناء الحضاري، وهي أنه بالرغم من الرصيد التاريخي لدعوة الأنبياء مع أقوامهم، والخلاصات التي انتهت إلى النبوة الخاتمة، وساهمت في بنائها وعطائها، فإن دعوة الرسول ﷺ ومنهجه في التغيير والبناء، استغرق ثلاثة وعشرين عامًا، أي استغرق الزمن المطلوب لبناء

جيل كامل، على رأي علماء الاجتماع، بدءاً من قوله تعالى : ﴿اقرأ﴾ – ولا نقصد بالقراءة هنا: تعلم الأبجدية فقط، وهي مقصودة بلا شك، كمفتاح للعلم، وطريق للدين الجديد الخاتم، ووسيلة للتغيير والبناء الحضاري، وإنما نقصد القراءة بأبجدية إسلامية، ذات منهجية خاصة بها.. فليس كل قارئ بالأبجدية، قادراً عليها، إذا افتقد الإيمان الذي يعتبر المؤشر الصحيح لتوجيه أبجدية الإنسان، وربطها بغاياتها.. إنها القراءة باسم الله الخالق، القراءة باسم الرب الأكرم.. إنها قراءة جديدة متميزة، عن كل القراءات القائمة، والأبجديات المعروفة – وانتهاءاً، بالوصول إلى مرحلة الاكتمال والكمال، التي أوصلت البناء إلى غايته، والقراءة إلى هدفها، بقوله تعالى : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (المائدة : ٣) .

ومن الأمور الأساسية التي قد يكون من المفيد التوقف عندها قليلاً، ونحن نحاول، تحديد بعض الملامح، لمنهج النبوة الخاتمة، في التغيير والبناء الحضاري: قضية بشرية الرسول ﷺ وخضوعه في حمله، وولادته، ورضاعه، وشبابه، وهرمه، ومرضه، ووفاته عليه الصلاة والسلام، للسنن الفطرية، والقوانين الطبيعية، التي يخضع لها سائر البشر.. فلقد كان حمله طبيعياً، استغرق مدة الحمل نفسها، كما كانت ولادته طبيعية، كسائر الولادات، وعانى من فقد الأم والأب، ككثير من البشر، وخضع لكفالة الأقارب، وبلغ سن الشباب، وعمل في الأعمال، التي كان يمارسها قومه، كالرعي، والتجارة، وتزوج، وأنجب، وفقد الابن، والبنت، والصديق، والزوجة، وتعرض للأذى والمرض، والنصر، والهزيمة، وحل به من جراحات الحرب، مايمكن أن يحل بكل إنسان، وأعلن أكثر من مرة: أنه بشر من البشر، وأن النبوة لم تخرجه عن بشريته، وإنما

امتاز عن البشر بالوحي، والعصمة، حتى يتأهل ليكون قدوة للبشر ، ويربى على عين الوحي ، قال تعالى على لسان نبيه مقرراً حقيقة البشرية: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ (الكهف : ١١٠) .

ولعل من الأمور الجديرة بالنظر هنا، أن سيرة الرسول ﷺ التي كانت تنزيلاً لقيم القرآن، وتجسيداً لها في الواقع البشري، تمثل منهجاً لكيفية التعامل مع القيم، وتطبيقها في المواقع، والأصعدة المختلفة، بمعنى أن القدوة، وتقديم النماذج للاقتداء، لم يقتصر على الحاضر، وإنما استوعب أبعاد الزمن الثلاثة: الماضي، بما عرض من قصص الأنبياء كنماذج، والمستقبل أيضاً في إبصار بعض ملامحه الرئيسة، والإخبار عن كيفيات التعامل معه، والواقع الذي يعيشه الناس، وتقويمه بشرع الله.

لذلك نقول : بأن القدوة هنا، في الرسالة الخاتمة، جاءت شاملة شمول الإسلام نفسه، ولئن كان الأنبياء السابقون، يمثلون نماذج للاقتداء في مجالات معينة، فإن النبوة الخاتمة، قدمت القدوة والأنموذج المحتذى في مجال الدعوة، ومنهجها، وكل وسائلها، ومتطلباتها، وفي مجال الدولة، وكل ممارساتها، ووظيفتها، وأعبائها، وعلاقاتها،وسلمها وحربها.

والحقيقة التي يمكن أن نلمحها هنا، والتي قد يكون من بعض مدلولاتها أهمية تقديم الأنموذج والقدوة، أن مساحة تعبيرية كبيرة من سور وآيات القرآن الكريم، وهي متواترة الورود، قطعية الثبوت، قد تضمنت عرضاً تفصيلياً لسيرة الرسول ﷺ، والأنبياء من قبله، حتى لا تبقى القيم والتعاليم الإلهية المنزلة، نظريات مجردة عن النماذج العملية، التي تجسد هذه الأفكار في أفعال، وإنما جاءت في معظم الأحوال، مقترنة بالأنموذج التطبيقي.. جاءت متلازمة، مع القدوة، التي تشكل منهج التعامل، وتحويل الفكر إلى فعل، والقيم إلى برامج،

لذلك بالإمكان القول: بأن المنهج، والأنموذج، والقدوة، حُفظت بحفظ القرآن، لأنها لاتقل، من حيث الدلالة العملية، عن آياته شأنًا في عملية البناء والتغيير، حتى إن بعض الباحثين المعاصرين – والأستاذ محمد عزة دروزة رحمه الله يأتي في مقدمتهم – كتبوا السيرة من القرآن مباشرة.

وقد يكون من أبرز الخصائص، التي تجعل المنهج النبوي في التغيير والنهوض والبناء الحضاري، محلاً للاقتداء والتاسي، وتجعله أنموذجًا، يحتذى، إنما هي في واقعيته، وتوافقه مع فطرة الإنسان، وإنه تحقق من خلال تعامله مع السنن الجارية في الكون، ومن خلال عزمات الإنسان، بضعفه وقوته، وتذكره ونسيانه، وفطرته وغريزته، ونزوعه إلى الخير، وانحداره في الشر، واستيعاب جميع ما يتعرض له من الظروف، والأحوال، والقابليات، من الشدة والرخاء ، والسقوط والنهوض، والهزيمة والنصر، ليكون المنهج من ثمّ دليلاً ومرشداً، في كيفية التعامل مع الأحوال كلها، من خلال الاستطاعات المتوفرة، والظروف المحيطة، ولم يتحقق من خلال تعامله مع السنن الخارقة، الخارجة عن طاقة البشر، التي قد تسهم بالتواكل، والإلغاء، وانطفاء الفاعلية، وتؤدي إلى السلبية، والإرجاء. واعتمد الزمن، وسنة الأجل، كعنصر لازم، لإنضاج الفعل الحضاري، وتحكم بالزمن تسخيراً وإنتاجًا، بعيداً عن النظرة الدهرية والجبرية الزمانية، التي كانت من مثالب الكفر، وليس من خصائص الإيمان. ونستطيع القول: إن المنهج النبوي في التغيير، والبناء الحضاري، تحكم بالزمن، وأعاد التعامل معه إلى المسار الحقيقي، وأكد استدارته كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وأبطل عبث العابثين بمساره، ليتحقق الانسجام، بين السنن الكونية، والسنن النفسية والاجتماعية، فلقد قال الرسول ﷺ في مراحل الاكتمال والكمال للمنهج النبوي، في خطبة الوداع:

إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض.... إلخ، حيث تحقق بالنبوة الخاتمة، التصويب لوجهة الإنسان، والقراءة الصحيحة، لحركة الكون، وغايات الحياة .

والناظر في منهج الرسول ﷺ يرى أنه لم يعان من الثنائية، بين هدايات الوحي، ومدركات العقل.. بين التعامل مع السنن الجارية، بل واستفراغ الجهد في التعامل معها، إلى درجة، قد يظن معها الجاهلون بالمنهج النبوي أن الأمر كله موكول إليها، ومعتمد عليها، وبين الالتجاء إلى الله، والتوكل عليه، واستفراغ الوسع في الدعاء، والابتهال، وانتظار المدد من السماء، لدرجة قد يظن معها الغافلون عن أبعاد المنهج النبوي ومقاصده، أن صاحبها لاعلاقة له بالتعامل مع السنن والأسباب.

كما أنه لم يعان من الثنائية بين القدر، والحرية، والإرادة الإنسانية، بل كان يعتبر أن الأسباب هي قدر من قدر الله، وأن الله الذي خلقها، وجعلها قدراً وسبباً لحصول النتائج، هو القادر على خرقها، وليست المعجزات في تعريفها المبسط إلا خرق للأسباب، وما اعتاده الناس، وأن من الفهم للمنهج النبوي، مدافعة سنة بسنة، ومغالبة قدر بقدر، والفرار من قدر إلى قدر، وأن إرادة الله هي التي أرادت للإنسان أن يريد ويفكر، لمغالبة قدر بقدر، وإلا، كيف يمكن عقلاً وشرعاً، ترتيب المسؤولية على الفعل، إن لم يأت ثمرة للإرادة والحرية ؟ وكيف يمكن أن يتحقق العدل المطلق ، الذي لا يليق غيره بالله سبحانه وتعالى ؟

كما أن منهج الرسول ﷺ، في التغيير والبناء الحضاري، الذي اكتسب خلوده من خلود القرآن، تجاوز حدود وقيود الزمان والمكان، ليكون قادراً على العطاء العالمي في كل عصر ومكان، ويكون قادراً على الاستجابة،

والاستيعاب، لمشكلات كل عصر، وتقديم الحلول المناسبة لها، ولذلك نراه استغرق في التغيير والبناء، مسيرة جيل كامل، واستوعب مراحل التغيير والبناء في كل مايعرض لها من الأحوال، ابتداءاً من حالات الاستضعاف، وحتى التمكين والوصول لحالات الكمال.

لذلك كان منهج المقاصد، والغايات، والأهداف، والاستطاعات.. لم يكن جامداً على حالة واحدة، من حالات الفرد، والمجتمع، والأمة، والدولة، والاستطاعة.. ولم يضع قوالب يابسة، ليصب الناس فيها بكل أحوالهم وحالاتهم، وإنما كان يتغير بحسب الرؤية المتوفرة، والمصلحة المتحصلة، والهدف المطلوب.. يتغير بحسب الظروف والإمكانات، ليستحق ان يشكل القدوة للإنسان، في كل مايعرض له، حتى على مستوى الدعوة والفكر.. كان للحرب خطابه ووسائله، وكان للعهد والسلم شروطه، وضوابطه، وكان للنصر فقهه، وللهزيمة فقهها، وكيفيات التعامل معها.

وكان الرسول ﷺ يحرم بعض الأعمال، في عام، ويبيحها في عام آخر، فعندما أصاب الأمة من المجاعات، نهى عن ادخار لحوم الأضاحي، وعلل ذلك بالدّافة، أي بسبب زيادة الفقر ،وقدوم الفقراء على المدينة، للشدة والمجاعة التي يعانون منها، فإذا انتهت المجاعة، أعاد الأمر للإباحة فقال: «**ألا فكلوا وادخروا**».

كما أنه حرم الادخار، والفضل، من المال، والظهر، والزاد، في حالات الشدة وضرورات التكافل الاجتماعي، أو ما يسمى اليوم اقتصاد الحرب، وأباح الادخار في حالات الرخاء.. يروي أبو سعيد الخدري فيقول: قال رسول الله ﷺ: «**من كان له فضل ظهر، فليعد به على من لاظهر له، ومن**

كان له فضل زاد، فليعد به على من لازاد له » ، فذكر من أصناف المال ما ذكره، حتى رأينا، أنه لاحق لأحد منا في فضل (رواه مسلم).

هكذا ، في بعض الظروف، يحرم المنهج النبوي، في الجانب الاقتصادي والاجتماعي، الادخار، ويعتبر الزائد عن الحاجة حرامًا في حالات خاصة، الأمر الذي لم تعرفه أشد المذاهب تطرفًا .

والمتأمل لمنهج الرسول القدوة ، ﷺ ، في تعامله مع استطاعة المكلَّف، وفقهه لحالته، وتقرير الأحكام الشرعية، في ضوء إدراك مقاصدها، يرىٰ كثيرًا منّا اليوم، هم حملة للفقه وليسوا فقهاء حقًّا.

ولعل في قصة خولة بنت ثعلبة رضي الله عنها، التي كانت سبب نزول قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم ﴾ (المجادلة:٢)، وتطور الحكم في ضوء الاستطاعة، ما يلقي أضواء كاشفة على ما نريد.. قال الإمام أحمد رحمه الله تعالىٰ:

« حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا محمد بن إسحاق ب ن يسار، عن محمد بن عمرو بن عطاء ، عن سليمان بن يسار ، عن سلمة بن صخر الأنصاري، قال: كنت امرءًا قد أوتيت من جماع النساء ما لم يؤت غيري، فلما دخل رمضان تظهرت من امرأتي حتى ينسلخ رمضان، خوفًا من أن أصيب في ليلتي شيئًا فأتتابع في ذلك إلى أن يدركني النهار، وأنا لا أقدر أن أنزع، فبينما هي تخدمني من الليل إذ تكشف لي منها شيء، فوثبت عليها، فلما أصبحت، غدوت على قومي فأخبرتهم خبري، وقلت: انطلقوا معي إلى النبي ﷺ فأخبره بأمري، فقالوا: لا والله لانفعل، نتخوف أن ينزل فينا، أو يقول فينا رسول الله ﷺ مقالة يبقى علينا عارها، ولكن اذهب أنت فاصنع

مابدا لك. قلت: فخرجت حتى أتيتُ النبي ﷺ فاخبرته خبري، فقال لي: «**أنت بذاك**»؟ فقلت: أنا بذاك. فقال: «**أنت بذاك**»؟ فقلت: أنا بذاك. قال: «**أنت بذاك**»؟ قلت: نعم. ها أنا ذا فامض في حكم الله عز وجل، فإني صابر له، قال: «**أعتق رقبة**»، قال: فضربت صفحة رقبتي بيدي، وقلت: لا والذي بعثك بالحق، ما أصبحت أملك غيرها. قال: «**فصم شهرين متتابعين**». قلت: يا رسول الله، وهل أصابني ما أصابني إلا في الصيام؟ قال: «**فتصدق**»، فقلت: والذي بعثك بالحق، لقد بتنا ليلتنا هذه وحشىٰ، ما لنا عشاء. قال: «**اذهب إلى صاحب صدقة بني زريق فقل له فليدفعها إليك، فأطعم عنك منها، وسقا من تمر ستين مسكيناً، ثم استعن بسائره عليك وعلى عيالك**»، قال: فرجعت إلى قومي فقلت: وجدت عندكم الضيق وسوء الرأي، ووجدت عند رسول الله ﷺ السعة، والبركة، قد أمر لي بصدقتكم فادفعوها إليَّ، فدفعوها إليَّ، وهكذا رواه أبو داود، وابن ماجه، واختصره الترمذي، وحسنه. (تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، المجلد الرابع، ص ٣١٩ ، ط دار المعرفة، بيروت، ١٩٦٩م).

ويبقى المطروح باستمرار : كيف ندرك مقاصد المنهج في كل مرحلة؟ وكيف نتعامل مع هذا المنهج من خلال العصر؟ وكيف نتعامل مع العصر ونقوِّم حركته ومسالكه، من خلال المنهج؟

وبعـــد :

فلا شك أن الكتابة في المنهج، ليس بالأمر السهل، وأنه اليوم بحاجة إلى جهود جماعية، وتخصصات متنوعة، في شعب المعرفة المختلفة، لتحقق أمرين لابد منهما في كل مشروع للنهوض، واستعادة العافية .

أولهما: فقه المنهج النبوي، بعد التأكد من ثبوته، من حيث النقل والحفظ، لأنها المرحلة الأولى والأساس الذي يقوم عليه البناء .

والثاني: هو فقه التعامل مع المنهج ، تطبيقًا على الواقع، الأمر الذي يقتضي فقه الواقع الإقليمي، والعالمي، والإنساني، واستطاعاته .

ولا نزعم للكتاب الذي نقدمه اليوم ، أنه استطاع أن يقدم المأمول، أو أن يحسم بعض الإشكاليات المنهجية، التي يعيشها العقل المسلم، ليحقق النقلة النوعية المطلوبة، من الحفظ، والنقل، والتوصيف، والتحليل، إلى التعليل وامتلاك القدرة على تعدية الرؤية، والتنزيل على الواقع البشري المأزوم، بغياب منهج النبوة .

وحسبنا في هذا الكتاب، أننا طرحنا قضية المنهج النبوي، من وجهة نظر أخرى، ماتزال الدراسات فيها ضنينة ، لأن معظم الدراسات، تمركزت حول منهج الحفظ والنقل، واستنباط الحكم التشريعي، أما أن يكون المنهج النبوي مصدرًا للمعرفة بشكل عام ، ومنهجًا للتغيير والبناء الحضاري، فلا تزال الحاجة إليه قائمة وماسة .

ونعتبر أن غاية ما قدمه الكتاب ، أنه طرح القضية للمناقشة، وفتح ملفها، وقدم محاولة، قد تكون، نجحت في بعض سعيها، وتعثرت في بعضه الآخر، حيث يعوزها الاستدلال والتوثيق، لتحقق البعد المطلوب، وهي محاولة لاتخرج عن سائر المحاولات، والاجتهادات البشرية، التي يجري عليها الخطأ والصواب، ويؤخذ منها ويرد.. ويبقى المطلوب اليوم بشدة، تضافر الجهود لإعادة استيعاب المنهج النبوي، الذي يشكل المعيارية ، لما يؤخذ وما يرد، والله من وراء القصد .

تمهيـــد

الحـمـد لله رب العـالمين ، والصـلاة والسـلام على أشـرف المرسـلين محمد ﷺ .. وعلى آله وصحبه وتابعيه بإحسان إلى يوم الدين.. وبعد..

فلقد خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان، وكرمه بفضله، وأمده من علمه، وجعل له عقلاً، وسمعًا، وبصرًا، وفؤادًا، وسخر له الأرض ذلولاً، والكون خدومًا، ووهبه قوى التعقل، والتدبر، والنظر، وأعطاه حياة ووقتًا. ثم كلفه برسالة الاستخلاف في الأرض. ولكن الإنسان وهو يتفاعل مع الحياة ومشكلاتها، والكون وأسراره، والتاريخ وسننه، بحاجة إلى مرشد يبصره بطريق الحق، ونور يدله على معالم الطريق، إذ العقل البشري لا يقوى وحده على إدراك سنن الخير، وسنن الشر، ولا يقدر بوعيه المحدود على فهم خبايا الكون، والحياة، والتاريخ، والوجود، ولهذا فقد وهبه الله خيرًا آخر، وفضلاً عظيمًا من أفضاله ذلك هو «علم النبوة» الذي انبثقت عنه مناهج الهداية التي حملها الوحي الأعلى إلى الأمم والشعوب كافة، عن طريق الأنبياء، والرسل صلوات الله عليهم أجمعين. إذن قد أمد الله سبحانه وتعالى الإنسان بمنهاج قويم، ومسلك أمين، يدله على سبيل الفوز المبين. ثم شاءت إرادة المولى تبارك وتعالى، أن يختم علم النبوة بالرسالة المحمدية التي أعطت للاستخلاف مضمونًا عالميًا شموليًا، وبعدًا دعويًا إنسانيًا هاديًا.

وفي الحركة الإسلامية الخاتمة، تمكن نبي الإسلام ﷺ من بناء حضارة توحيدية سامقة، واستطاع أن يقدم للبشرية جمعاء، نموذجًا فطريًا لتغيير حضاري إنساني، كوّن به إنسانًا استخلافيًا، وثقافة إنسانية، ومجتمعًا

منسجمًا، وتاريخًا عالميًا، وحضارة متوازنة. والنبي ﷺ وهو يواجه ظروف بناء الحضارة الإسلامية، كان منضبطًا بمنهج تغييري، يستمد وجوده، ووعيه، وأصوله من معيار الوحي الإلهي.

ولما كان أي بناء حضاري إنساني، مفتقر في حدوثه إلى منهج تغييري يقوده نحو غاياته، ومقاصده، بخطوات منظمة وسليمة، فقد استدعت العملية التغييرية النبوية وجود ذلك المنهج. والمنهج النبوي في البناء الاجتماعي، منهج فطري متوافق مع سنن الله في الخلق، ومنسجم مع قوانين الدعوات الإنسانية.

من هذه الأهمية العظيمة للمنهج النبوي، وقدرته على تركيب حضارة عالمية نموذجية، تستجيب لقانون الفطرة العالمي، برزت الضرورة الملحة لدراسته من وجهة نظر «حضارية سُننية»، تنفذ إلى محاولة وعي المنهج النبوي، بغرض استدعائه، ليساهم بقدرته الفائقة في حل معضلات الإنسان المعاصر وهو يستقبل عصر العالمية.

ففي هذا الجهد المتواضع جدًا، حاولت أن أنبه إلى أهمية المنهج النبوي في البناء الحضاري الجديد، وذلك لما للوعي بهذا المنهج، من فقه بصير، وإدراك عميق، وفهم سديد لسنن الدعوات، وقوانين النهضات، ومناهج البلاغات، ومقاصد الديانات، وأخلاق السياسات، وحاجات النفسيات، ومتطلبات العقليات، واستعدادات الشخصيات، وثقافات الجماعات، وسلوكات الأمم الناجيات، وشرائع الرحمة الميسرات. ففي المنهج النبوي، سبل لهداية الناس إلى الأعمال الصالحات، والأقوال الصائبات، والعبادات الصحيحات، والمعاملات النافعات، والمواقف المرضيات.

لقد قسمت هذا الكتاب إلى تمهيد، وثلاثة فصول، وخاتمة. بسطت الحديث في الفصل الأول، عن الإطار المنهجي العام، الذي يجب أن يدرس فيه المنهج النبوي، مركزاً على أهمية النظرة الكلية إلى السنة النبوية، وإلى طبيعتها الحضارية، مع إبراز بعض أبعاد المنهج النبوي، كالبعد المقاصدي، والبلاغي الدعوي، والسُّنني، وتدعيمها بنماذج، ودروس من الفقه النبوي العملي.

أما الفصل الثاني، فقد خصص لمعالجة قدرة المنهج النبوي على فهم، واستيعاب الظاهرة التغييرية في العصر العالمي، مع تحديد أسباب هذه القدرة، ومحاولة اكتشاف منطقية السنة النبوية، ومنهجها الاستدلالي. وبعد ذلك حاولت تحديد بعض الخصائص التي تطبع الواقع العالمي الراهن، مع إعطاء نموذج تحليلي لقدرة المنهج النبوي على حل المأزق العالمي الراهن، ومحاولة تحديد مفهوم إسلامي للتغيير الحضاري، بجانب الإشارة إلى بعض المفهوم المزيفة للتغيير.

أما في الفصل الثالث، فقد أثرت قضية من أهم قضايا الفكر الإسلامي، وهي المنهج النبوي وقدرته على تركيب حضارة في العصر العالمي، وهنا تطرق التحليل إلى بعض القوانين التي تحكم التغيير الاجتماعي، ومنها قوانين التوجيه، وفلسفة الانطلاق، والثقافة. كما تم التنبيه إلى منهج الترشيد النبوي للحركة التغييرية، وإلى محاولة استخراج معالم المنهج النبوي، وطبيعة الإنسان الذي يريد هذا المنهج تشكيله، وتقديم نموذج لإنسان الاستخلاف الذي بناه رسول الإسلام ﷺ. ثم ختمت البحث ببعض الملاحظات المهمة.

لقد تم هذا العمل المتواضع في قسمه الأول «المقدمات»، بحول الله

وتوفيقه، وإنني لسعيد جداً أن أشير إلى تلك الجهود التي بذلها أخي الأستاذ مصطفى عبد اللطيف حللي، في سبيل إنجاز هذا الجهد البسيط، الذي استفاد كثيراً من نصائح، وتوجيهات أخي العزيز الدكتور إبراهيم محمد زين، الذي كان فعلاً مثقفاً مسلماً متميزاً باهتمامه بقضايا الأمة، حريصاً على مستقبلها، عاملا من أجل نهضتها. فقد عرضت عليه فكرة الكتاب في البداية، فرحب بها، وأبدى رأيه الذي أقدره كثيراً، ثم بعد أن أنجزته بحول الله وقوته، أطلعته عليه مخطوطاً، فطلب مني أن أقوم بنشره بسرعة. كما سعدت كثيراً بترحيب البروفيسور الدكتور عبد المجيد مكين المفكر السيلاني المسلم بفكرة هذا الكتاب، حيث أفدت كثيراً من أفكاره، وتوجيهاته القيمة. فجزى الله سبحانه وتعالى كل من ساهم في إنجاز هذا العمل، من قريب أو بعيد.

كوالالمبور - ماليزيا
١٥ / ديسمبر ١٩٩٣م

الفصل الأول
الإطار العام لدراسة المنهج النبوي

كما هو معلوم في كل نوع من أنواع المعرفة البشرية، أن دراسة أي مشكلة من المشكلات، يقتضي بالضرورة أن يمتلك الباحث رؤية، أو منظوراً منهجيًا، يتصور من خلاله المسائل، ويحلل في ضوئه الفرضيات، والإشكاليات المطروحة على بساط البحث. ودراسة السنة النبوية، كظاهرة دينية، واجتماعية متصلة بالواقع الإنساني، في كل مستوياته، العقلية، والنفسية، والسلوكية، والعمرانية، الفردية، والجماعية، بحاجة إلى مدخل منهجي، يتيح للباحث فيها فرصة دراستها بشكل مستوعب، ينكب به إلى فهمها، واستخراج قوانينها، وسننها، وإدراك منطقيتها، ومنهجها الاستدلالي، ونظامها الفكري الذي يتفرع إلى ما هو إلهي، وإلى ما هو بشري. فالدراسة العلمية للسنة النبوية، باعتبارها مركبًا لحضارة من جهة، وأثرًا من آثار الوحي على أرض الواقع من جهة أخرى، تستدعي فهما مستوعبًا للمفتاح المدخلي، الذي يمكن الباحث من دراستها بشكل صحيح، ومثمر.

أهمية النظر الكلي في قضايا السنة

فكثير من البحوث الإسلامية في هذا الميدان، وعلى اختلاف لمداخل الدراسه أظهرت أن هناك قصوراً منهجيًا في إطار الدراسة، وأرضيته التحليلية، يؤدي دائمًا إلى تقديم السنة من إحدى زواياها المتعددة دون الأخرى. وهذا ما يجعل عملية التفاعل مع السنة تعاني من «النظرة الجزئية» التي تكتشف أحد أبعادها معزولة عن الأبعاد الأخرى... فالمتكلم، والأصولي، والمحدث، والمفسر،

والفقيه، وعالم السيرة، والتاريخ، وعالم الاجتماع، والاقتصادي، والسياسي، والعسكري، والفيلسوف، والتربوي، والمفكر... كل واحد من هؤلاء له منهجية في دراسة السنة النبوية.. فمحاولات الاستفادة منها تتم من زاوية التناول التي تخدم مجال الدراسة.. وكل منهجية تكشف لنا بعدا من أبعاد السنة، فلو تأتّى لأحد تقديم دراسة تكاملية، تستفيد من كل هذه المنهجيات، وتنظر إلى السنة في كل أبعادها، لقدم لنا منهجًا جديدًا، ومدخلاً متكاملاً، قد يتيح لنا فرصة فهم السنة، والإفادة منها في حياتنا العقلية، والنفسية، والسلوكية، والعمرانية...

وسوف لا أزعم في هذه الدراسة، أنني قادر على تقديم هذا المنهج المتكامل في دراسة السنة النبوية، لأسباب أذكر منها هنا سببين اثنين هما :

- صعوبة المهمة على الصعيدين المنهجي، والمعرفي معا. فالمنهجية المتكاملة في دراسة السنة النبوية، تقتضي سبرًا عميقًا للمناهج الجزئية في دراستها، وهي التي أشرنا إليها قبل قليل.. وكذلك بالنسبة للجانب المعرفي الذي يقتضي إلمامًا واعيًا بما أنتجه تطبيق المناهج الجزئية من معارف، وأفكار منثورة في كتب الأمة المتنوعة، وهذا مما هو متعذر في الوقت الراهن على المؤسسات، ناهيك عن الأشخاص..
- أما السبب الثاني فهو راجع إلى منهجية هذا البحث المتواضع، إذ لا يمكن الحديث عن مثل هذا الطرح قبل وضع إطار منهجي له، تدرس ضمنه الأفكار، وتحلل الإشكاليات.

طبيعة الجهد النبوي من الوجهة الحضارية

فمن هنا آثرنا في هذه الدراسة الأولية، في موضوع (المنهج النبوي والتغيير الحضاري الجديد)، أن نحاول تحديد مدخل منهجي عام للتعامل مع الظاهرة السنية.

إن دراسة سيرة الرسول ﷺ وحركته، في مدة ثلاثة وعشرين عامًا، هي في جوهرها دراسة في تشكيل حضارة، وبناء نموذج حياتي جديد، يدين : بـ (لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله). فأقواله، وأفعاله، وتقريراته، وشمائله، وفضائله، وأخلاقه ﷺ هي القواعد التي عليها بنى المجتمع الإسلامي، وعضد لبناته. فلم يكتف عليه الصلاة والسلام بوضع مخططات التغيير، وبرامجه، ومناهجه، وكيفياته، وموجباته، بل ساهم في البناء حتى وصل به إلى المرحلة التي اكمل فيها (مهمة البلاغ المبين) التي أمره بها الخالق عز وجل. حيث لا يمكن لأي مشكك أو متوهم أن يثير أي شبهة عن كمال هذه المهمة، وشمولها لكل ما يخص بناء الإنسان، والمجتمع، والثقافة، والحضارة التي تدين بالإسلام.

قال تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ (المائدة : ٣).

ومهمة البلاغ المبين على الصعيد العملي، هي التي أنتجت الحضارة الإسلامية، وأدخلت القبائل العربية الجاهلية إلى مرحلة التفاعل مع القضايا الحضارية الكبرى التي كانت تدور على محوري فارس، وروما. فالمبلّغون الأوائل تحت قيادة الرسول ﷺ هم المؤسسون (لعلم الدعوة الحضارية العالمية) على الصعيدين النظري، والعملي.. وبطبيعة الحال تكون دراسة الحضارة الإسلامية الأولى هي دراسة في صميم الجهد النبوي، وفي منهجيته في البلاغ، والدعوة، والتغيير الحضاري، والتي كان من آثارها ذلك العملاق الإسلامي الذي أثرى مسيرة الإنسانية، وقدم لها نموذجًا حضاريًا فطريًا متوازنًا، ومتطابقًا مع الخطاب الإلهي.. فكانت الحضارة الإسلامية هي (حضارة المصلحة) بخلاف الحضارات التي عاصرتها، والتي نعاصرها نحن اليوم بعد أربعة عشرة قرنًا من

الزمان، أعني (حضارات المصلحية) !!.

فالدارسون لجهد الرسول ﷺ الشاوي في كل جانب من جوانب الحضارة الإسلامية، يجب أن يلاحظوا بأن هذا الجهد كان نتاجًا طبيعيًا لتفاعل عناصر أساسية لا يمكن أن نفهمها إلا في صورة متكاملة، تقدر قيمة كل عنصر من عملية البناء الحضاري النبوي وهي :

- عنصر الوحي الأعلى (قرآناً وسنة) بما فيه الرؤية، والمنهاج، والمشروع الإسلامي.
- وعنصر الواقع الجاهلي، في معناه الشمولي المتضمن لحضارتي فارس، والروم.
- والجهد النبوي، في منهجيته، ومقاصده، ووسائله، وأساليبه.
- وجهد الصحابة، على اعتبار كونهم الجماعة المؤسسة الأولى..

فالنبي عليه الصلاة والسلام بشر، كان يتحرك بالوحي في واقع إنساني، ومطالب بالتبليغ عن ربه، وذلك بدعوة الناس إلى الإسلام، وتشكيل الجماعة الموحدة التي تحمل همّ المشروع، وهم توريثه للأجيال الإسلامية المتعاقبة. فمهمة الرسول ﷺ تقتضي وعيا على الخطاب الإلهي، ووعيًا على الواقع، ووعيًا على معادلات البشر، والمجتمعات المعاصرة، ووعيًا على منهج البلاغ المبين، ووعيًا على علوم التوجيه، والتربية، والسياسة، والاجتماع، والتاريخ والحروب.. ونحن عندما ندرس جهده عليه الصلاة والسلام، نجد فيه كل هذه التخصصات منظمة في وحدة متكاملة، ومتناسقة. ففي كل عمل أو قول أو تقرير أو خلق... تبرز لك الحكمة، وترى الوعي يتدفق ليروي عقول العلماء العظام الذين أفنوا أعمارهم في التحصيل، فلا يسعهم أمام هذا الجهد إلا الاعتراف الصادق والحقيقي بعظمته، وصحته، وفعاليته..

معالم منهجية الرسول ﷺ في البلاغ المبين

إن دعوة الرسول ﷺ كمبلِّغ عن ربه سبحانه وتعالى، دعوة عالمية إنسانية، موجهة إلى كافة الخلق بخطاب أخلاقي، وعقلي، غايته بناء الحضارة التي يكون بمقدورها تحقيق مقاصد الشارع في الخلق، وتوفير موجبات الاستخلاف للعباد. لقد كان عليه الصلاة والسلام يخاطب الناس حسب أفهامهم، ودرجات وعيهم، وقدراتهم، وفي كل خطابه راعى الرحمة، والتيسير على الخلائق، وحملهم محمل المصلحة، ورفع الحرج، ونبذ شرائع الأصر والأغلال، وإدخالهم في السلم كافة، قال تعالى :

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء : ١٠٧). وقال رسول الإسلام ﷺ : (يسروا ولا تعسروا بشروا ولا تنفروا) (١).

وعليه، فدراسة منهجية الرسول ﷺ في البلاغ المبين، يجب أن تتم على أساس هذا الوعي الغائب، والجاري على المصلحة.

وإذا كانت منهجية الرسول ﷺ مستندة إلى قاعدة المصلحة، والتيسير، والعلم بحاجات الخلق، وقدراتهم، ومراعاة أحوالهم في السراء والضراء، والمنشط والمكره، فإن فهمها كمنهجية لفعل حضاري توحيدي، يجب أن يتأسس على هذا الفقه المصلحي. ونحن هنا لكي نفهم المنهجية النبوية لابد أن ندرسها من خلال بعض المداخل المهمة، والتي منها :

- البعد التوحيدي.
- البعد المقاصدي.
- البعد البلاغي (الدعوة).
- البعد السُّنَني.

(١) متفق عليه من حديث أنس.

- البعد العقلي (العملي).
- البعد الأخلاقي.
- البعد الزماني.

وفي هذه الدراسة سوف نركز على تحليل بعدين ، مرجئين غيرها إلى حينه بإذن الله تعالى.

أولا : البعد المقاصدي للمنهج النبوي

الجهد النبوي بأكمله مبني على مراعاة مقاصد الشارع في الخلق، ونحن في هذا العنصر، نريد فهم المقاصد كإطار منهجي، كان سمة الجهد النبوي خصوصًا، وكضابط حاكم على الحركة الاجتهادية الإسلامية عمومًا.

ملاحظة عن النظام المقاصدي

فقصد الشارع قد انصرف ابتداءًا إلى درء المضرات على الناس، وجلب المسرات الدنيوية، والأخروية لهم. فالنظام المقاصدي ركب أصلاً من أجل تحصيل مقصد كلي عظيم، يفتقر إليه الوجود البشري بفطرته التي فطره الله عليها، وهو (مقصد الاستخلاف) الذي تنبني عليه كل المقاصد الأخرى، وتصدر عنه منظومة المصالح البشرية. يقول الإمام الشاطبي رحمه الله في موافقاته:

(لما انبنت الشريعة على قصد المحافظة على المراتب الثلاث من الضروريات، والحاجيات، والتحسينيات، وكانت هذه الوجوه مبثوثة، في أبواب الشريعة، وأدلتها غير مختصة بمحل، ولا بباب، ولا بقاعدة دون قاعدة، كان النظر الشرعي فيها أيضًا عامًا لا يختص بجزئية دون أخرى، لأنها كليات تقضي على كل جزئي تحتها » ... » فإذا وجدنا أن الحفاظ على الدين، أو النفس، أو النسل، أو المال، أو العقل، في الضروريات معتبر شرعًا، ووجدنا ذلك عند استقراء

جزئيات الأدلة، حصل لنا القطع بحفظ ذلك، وأنه المعتبر حيثما وجدناه) (١).

مقصد الاستخلاف

ففي كلية الاستخلاف التي هي أصل الكليات السابقة، نجد مصالح الفرد، ومصالح المجتمع، كما نجد مصالح الإنسانية... فحفظ الدين، والنفس، والعقل، والمال، والنسل، أمور مطلوبة شرعاً.. ولكن كلية الاستخلاف الكبرى التي بعث الخطاب الإلهي من أجل تحقيقها، لا تقتصر على القضايا الخمسة المذكورة في معظم كتب الأصول، ولكنها تتعدى لتنبه إلى قضية أخرى في غاية الأهمية، وسوف لن تتحقق مصالح العباد على الوجه المطلوب إذا لم تراع. وهذا معناه أن النظام المقاصدي القائم، يحتمل إضافة كليات، يمكن أن تكون مما دل الشرع على اعتبارها ، وجاء أصلاً للمحافظة عليها ، وفي هذا يقول ابن تيمية – رحمه الله – عن علماء الأصول المشتغلين بفكرة المقاصد :

(... رأوا أن المصلحة نوعان : أخروية ودنيوية، جعلوا الأخروية ما في سياسة النفس، وتهذيب الأخلاق، من الحكم، وجعلوا الدنيوية : ماتضمن حفظ الدماء، والأموال، والفروج، والعقول، والدين الظاهر، وأعرضوا عن العبادات الباطنة والظاهرة من أنواع المعارف بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، وأحوال القلوب، وأعمالها : كمحبة الله، وخشيته، وإخلاص الدين له، والتوكل، والرجاء لرحمته، ودعائه، وغير ذلك من أنواع المصالح في الدنيا والآخرة، وكذلك فيما شرعه من الوفاء من العهود، وصلة الأرحام، وحقوق المماليك، والجيران، وحقوق المسلمين بعضهم على بعض، وغير ذلك مما أمر به ونهى عنه : حفظًا للأحوال السنية، وتهذيب الأخلاق، ويتبين أن هذا جزء من أجزاء ما جاءت به الشريعة من مصالح) (٢).

(١) الموافقات في أصول الشريعة، أبو إسحاق الشاطبي، ج٢، دار الفكر العربي، ص : ٥ – ٦ – ١٠ بتصرف خفيف.
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية، ج٣٢، جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد.

إن ملاحظة شيخ الإسلام تبحث في صميم (النظام المقاصدي) [1]؛ وكأنه يريد أن ينبه على ضرورة إعادة قراءة مقاصد الشريعة، ومحاولة إدراج أهداف أخرى دل الشرع على اعتبارها، حيث رأى أنه من الضروري إلحاقها بالكليات السابقة.. وسواء أكان ما اقترحه من مقاصد يمكن أن يشكل كلية جديدة، تدرج في عداد الكليات الموجودة، أو كان داخلاً أصلاً في الكليات القائمة، ولكن الاشتعال بها كان قليلاً فوجب التنبيه عليها، فإن الأمر الذي يهمنا هنا هو طلب الاجتهاد، والدعوة إليه في قضية تبدو أنها اكتملت حلقتها.. وحتى الإمام الشاطبي الذي أدار البناء الأصولي بأكمله على مقاصد الشريعة، ركز على نفس الكليات الموجودة من قبل.

كلية الكون

إننا ونحن نستقبل العصر العالمي بكل ظروفه، وموجباته، نلاحظ بأن الإنسانية بحاجة إلى فهم أعمق لمقاصد الشارع في الخلق، تلك المقاصد التي إذا لم تعتبر في حياة الناس، فإن ذلك سيفتح عليهم مسالك المضرات، والمشقات، والأهواء التي لا تحمد عقباها في الدارين.

ومن بين المقاصد الكلية الضرورية التي دل الشرع على حفظهما واعتبارها: (مقصد المحافظة على الكون) بمفهومه الواسع، الذي يشتمل على كل ما سخره الله لخلقه من بحار، وأرض، وجبال، ومعادن، وطبيعة.. وآيات التسخير في القرآن كثيرة جداً. فما يحصل اليوم في حياة الناس من جراء التفاعل غير الصحيح مع الكون، وما تعانيه البشرية من تلوثات، ومجاعات، وتهديد بنفاد المسخرات الإلهية – حسب البناء الفلسفي للنظرية الاقتصادية المادية – إنما يعبر

(١) راجع البرهان للإمام الجويني، والمستصفى للإمام أبو حامد الغزالي، وإرشاد الفحول للشوكاني، ومقاصد الشريعة للطاهر بن عاشور.

عن جهل الناس لمقاصد الشارع الحكيم، التي دلت على حفظ الدين والنفس والعقل والمال والنسل، كما دلت على حفظ الكون ؛ فهذه الكلية الأخيرة تؤدي غرضين في موضوع الاستخلاف :

- التسخير المادي وما يشتمل عليه من خيرات هي قوام العمران البشري، والبناء الحضاري في جانبه المدني والمعاشي...

- التسخير السُنني وما يشتمل عليه من آيات، وسنن، وقوانين دالة على أنه الحق تبارك وتعالى .. قال عز وجل : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ (فصلت : ٥٣) . فللكون دور أساس وضروري في هداية الناس إلى الحق تبارك وتعالى . والناس عندما لا يحافظون على الكون، ولا يسخرونه كما أمر تبارك وتعالى، فإنهم سيهلكون؛ وما تلوث البيئة الحالي، الذي يهدد بهلاك النسل، إلا مظهر من المظاهر الدالة على أزمة عدم المحافظة على كلية الكون، التي دل الشرع على اعتبارها، إذ بدون ذلك ستضيع كل مصالح الناس الخاصة بحياتهم المادية، والمعنوية..

وهناك توجيه نبوي عظيم الدلالة في هذا الميدان، قلَّ ما يدركه الباحثون وهو قوله ﷺ : **(إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها)**(١).

إن مقاصد الشارع في الكتاب، والكون، والأنفس، وضعت لتحقيق مصالح العباد في الدارين، وبها سيحصل الاستخلاف الذي وجد البشر من أجله أصلا، كما أنها تمثل أصلاً، منهجًا تغييريًا مستقيمًا على الطريقة.

المنهج النبوي كإطار عملي للمقاصد

من استقراء السنة النبوية، يتضح بجلاء البعد المقاصدي، في السيرة

(١) صحيح ، رواه أحمد (صحيح الجامع) .

النبوية، فكل ما صدر عنه ﷺ يقع في دوائر التيسير، والرحمة، والعدل، ورفع الآصار والأغلال، ويهدف إلى حفظ مصالح الخلق المتعلقة بحياتهم الفردية، والجماعية، والإنسانية.. وحياتهم المعاشية، والروحية.. فمنهجية الرسول عليه الصلاة والسلام المضمنة في أقواله، وأفعاله، وتقريراته، وأخلاقه، وشمائله، مصبوغة بالمنطق المقاصدي الهادف.

فكل جهده يجب أن يدرس في إطار مقاصد الشارع.. فاعتماده على منهج التربية، والتكوين، والتدريب على الاجتهاد، والتشاور، والتفكير، والتبين، والسير في الأرض، والجهاد، إنما كانت غايته الأساسية توفير الجو والوسط، الذي تنمو فيه «العقلية المقاصدية» المتدبرة لخطاب الله، والتي تسبر أعماق البلاغ الرباني المبين، وتحمل رسالة القول الثقيل.. حيث كان عليه الصلاة والسلام (مرجعية مقاصدية) توجه الناس إلى الأسرار، والمقاصد التي حملها التكليف الرباني للخلق.

فعندما نقوم بدراسة سنن نبينا عليه الصلاة والسلام، وأحاديثه التي حوت أقواله، وأفعاله، وتقريراته، وسائر أعماله، علينا أن نلاحظ المسحة المقاصدية، التي لم تكن علمًا صناعيًا ينكب فيه عليه الصلاة والسلام مع صحابته الكرام على طاولات البحث، والدرس، والتحصيل المدرسي، بل كانت سلوكًا وروحًا، تسري في عروق الناس، وتغذي جنين الحضارة برسالة الإنسان في الأرض، وتريه حقيقة وجود الكتاب، والكون، والناس، وتبين له أن كل شيء وجد ليحقق مصالح الناس في الدارين..

ثانيا : البعد البلاغي للمنهج النبوي

يقول المولى تبارك وتعالى في كتابه العزيز الحكيم : ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ